

المنطلقات الفكرية لعملية التواصل عند هابرماس

Intellectual foundations of the communication process according to Habermas

بناصر الحاجة ، جامعة ابن خلدون، تيارت (الجزائر)

الإيميل: bennaceurhadja@yahoo.fr

تاريخ النشر: 2024-11-09	تاريخ القبول: 2024-11-03	تاريخ الإرسال: 2024-10-27
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

لقد شكل الاهتمام بفلسفة التواصل منعرجا حاسما في الدراسات والأبحاث الفلسفة المعاصرة، بعدما أهملت فلسفة الوعي وفلسفة التأمل الذاتي فعل التواصل، وجعلت الذات عماد الحقيقة والمعرفة ولهذا السبب انشغلت الفلسفة المعاصرة بمفهوم التواصل كمفهوم مركزي في العديد من المباحث سواء كانت علمية، أو سياسية، أو فلسفية، انطلاقا من فهم الإنسان كذات مقابلة لطرف آخر.

الكلمات المفتاحية: الفلسفة، العقلانية، التواصل، التفاعل.

Abstract :

The interest in the philosophy of communication has constituted a decisive turning point in contemporary philosophical studies and research, after the philosophy of consciousness and the philosophy of self-reflection neglected the act of communication, and made the self the pillar of truth and knowledge. For this reason, contemporary philosophy has been preoccupied with the concept of communication as a central concept in many studies, whether scientific, political, or philosophical, based on understanding the human being as a self corresponding to another party.

Keywords: philosophy, rationality, communication, interaction

الفاعلية التواصلية ومنطلقاتها الفكرية.

لقد شكل الإهتمام بفلسفة التواصل منعرجا حاسما في الدراسات والأبحاث الفلسفة المعاصرة، بعدما أهملت فلسفة الوعي وفلسفة التأمل الذاتي فعل التواصل، وجعلت الذات عماد الحقيقة والمعرفة ولهذا السبب إنشغلت الفلسفة المعاصرة بمفهوم التواصل كمفهوم مركزي في العديد من المباحث سواء كانت علمية، أو سياسية، أو فلسفية، إنطلاقا من فهم الإنسان كذات مقابلة لطرف آخر.

وتعد نظرية هابرماس التواصلية، والمستفيدة من العلوم الاجتماعية والسوسيولوجية السابقة تحولاً إستيمولوجياً، بلور من خلاله فلسفة جديدة وفكرًا جديدًا لا يهدم القديم وإنما يستفيد منه لمساءلته ومعرفة اللبس فيه، وبالفعل فإن ما أسماه بالعقلانية التواصلية كبديل للعقلانية الأداتية جعلت منه عالم إجتماع إضافة إلى كونه فيلسوف كما حدد مفاهيم أساسية لنظريته كالتواصل، التدوات، البينذاتية، الحوار، اللغة، الفعل الإستراتيجي... التفاهم الفضاء العمومي، وغيرها من المفاهيم المؤسسة لهذه النظرية كنظرية نقدية للمجتمع، أراد أن تكون نظرية كونية تهدف وترمي في النهاية إلى أهداف سياسية.

كما تولد لديه هاجس التواصل من خلال نقده للنظرية الماركسية فما يميز الإنسان عن الحيوان ليس العمل، وإنما فعل التحاور والتواصل وفق أخلاقيات النقاش، ومن ثم الإهتمام بالجانب الأخلاقي خاصة الكانطي إضافة إلى الإهتمام باللغة وبالمعرج اللغوي، وإستثمر مضامين فلسفة ودراسات لغوية من نظريات سابقة أمثال نظرية التفاعلية الرمزية لهربارت ميد، ونظرية هومبولدت Wilhelm von Humboldt المحددة لوظائف اللغة وكذا نظرية أفعال الكلام "لأوستن" و"سيرل" والهيرمينوطيقا خاصة هيرومنوطيقا غدامير ومنه كيف إستثمر هابرماس من هذه الدعائم فلسفة التواصلية؟ وهل إعتبر اللغة مجرد وسيلة للتواصل أم هي وسيلة للتفاهم البينذاتي؟ ولماذا إعتد البراديغم التداولي بدل البراديغم اللغوي؟.

مرجعية هابرماس في تأسيس مشروعه التواصلية:

يعد التواصل مطلباً ملحا من المطالب التي كرس لها هابرماس معظم كتاباته الفلسفية وجعلها أساس مشروعه الفلسفي وهذا بحكم اطلاعه على أعمال سابقة من فلاسفة أوسوسيولوجيين وكذا معاصريه وهمومين لعدد كبير من علماء اللسانيات والإجتماع في تحصيل ورصد نظريته في التواصل ومن هؤلاء:

جورج هربرت ميد: G.H. Mead (1863-1931) : من مؤسسي نظرية التفاعلية الرمزية، رفض ميد منهج الإستيطان لدراسة سلوك الإنسان كونه منهج يفهم الذات بمنأى ومعزل عن الآخرين والقائم على تأمل الذات لذاتها كموضوع للمعرفة، مستفيداً من المدرسة السلوكية في دراستها السلوك تتم مراعاة التفاعلات الموجودة بين البشر ضمن المجتمع والمعبر عنها برموز، أي سلوك الذي يعتمد على وسيط اللغة «ويصف ميد شيئاً شبيهاً بالعلاقة الحميمية التي تنشأ بين شخصين حيث تتطور في سياق تفاعلهما اليومي لغة خاصة بهما تقريباً، وهذا ما يجري في الواقع بصورة عامة فالتفاعل الإجتماعي يولد المعاني، والمعاني تشكل عالمنا»¹

فهم التنشئة الإجتماعية ككل مركب يرتكز في أساسه على فهم السلوك الفردي، مما يدل على أن التفاعلية الرمزية تركز على الجزء أو الوحدات الصغرى لفهم الكل أو الوحدات الكبرى وأن الإنسان ينتقل من التعبير بالحركات إلى التعبير بواسطة الرموز المتاحة للفهم للمشاركين في التفاعل ليتفقوا على معاني مشتركة

فيما بينهم لتلك الحركات المحولة الى رموز، فالأشياء تقاس قيمتها ووجودها بما يضيفه عليها الإنسان من معنى ومنه فالفاعل الاجتماعي هو من يولد المعاني فمعنى المعدن هونتاج للدور الذي تلعبه المعادن في الاستخدامات اليومية للإنسان كوسائل النقل....

ووسيلة النقل تعني الدور الذي تلعبه في تخفيف عناء الشقاء وتقصير المسافات بالنسبة للإنسان، فلقد طور ميد «الإطار المفاهيمي القاعدي للفاعل الموجه بمعايير وبواسطة اللغة، حيث انطلق من بدايات التفاعل الموجه بالغريزة الذي يتم بواسطة الحركة إلى التفاعل المحكوم بمعايير»²، وعلى هذا الأساس فرق ميد بين الكائن الإنساني والكائن الحيواني من باب أن التواصل هو ما يميز الإنسان عن غيره ويخصه وحده، فالحيوانات تتصل فيما بينها بإشارات كالنحلة التي تخبر عن وجود مكان الرحيق بواسطة الرقص على شكل عدد ثمانية، لكن هذه الإشارة لا يحدث من خلالها التفاهم كما يحصل عند الإنسان إلى درجة أن كل طرف يتخيل نفسه مكان الآخر، فاللغة هي الحد الفاصل بين الإنسان والحيوان، ويرى هابرماس أن ميد منح للغة وظيفة التفاعل الاجتماعي، فالعلاقة البدائية هي نتاج تبني كل ذات لموقف ومعنى إيماءة الذات المقابلة لها والذي هو في الأساس استجابة لإيماءة الطرف الأول، فالتفاعلية الرمزية إذن تمكننا من رؤية ومعرفة ذاتنا كما يراها ويعرفها الآخرون، أي أن الذات ترى نفسها من خلال مرآة الغير، «فلنتذكر أن الرمز الدال يثير في نفسي ردة الفعل ذاتها التي يثيرها في الآخرين، إنه يمكنني من النظر إلى نفسي كما ينظر إلي الآخرون، هذا هوأنا: نفسي كما يراها الآخرون أما وجهي الثاني من ذاتي فهو الجزء الذي ينظر إلى ذاتي (أنا أفكر في)»³.

ومنه فإن الفرد يكون ذاته ويتعرف عليها باعتبارها كائن ضمن كائنات اجتماعية ونموها إنما يحصل داخل الجماعة بفضل عملية التفاعل بحيث يتمكن الفرد من رؤية ذاته في نطاق أوسع أو كما يراه الكل والآخر العام «وهابرماس يجد في ذلك معنى التداولية الكونية أو الكلية التي تقوم على أساس فكرة الآخر المعمم المنطلقة من الذات لتشكيل معنى الكلية وذلك يرتبط بمعنى الموقف الذاتي المتعلق بالصدق، والجدية في القول، بحيث يجعل ذلك أمر العمومية معقولا ومقبولا نظريا»⁴، فتكوين الجمعية حسب ميد ينطلق من عملية تشكل الأنا ومن تكوين للذات عن طريق اللغة من جهة، ولتبني الذات توقعات سلوك الأنا المقابلة لها، ومنه فعملية تشكل الذات والأنا تتم في سياق واحد ومتزامن مع الجماعة.

ولقد أبدى هابرماس إعجابه واستفادته من نظرية ميد في نقده لفلسفة الوعي وفلسفة الذات، ومن تشكل الهوية الجماعية، بدء من كون شخصية الفرد المنتهية إلى الجماعة بعاداتها وتقاليدها وقيمهها، وتعتبر اللغة وسيطا لنقل هذه العادات والقيم وهذا يكون ميد بين فعالية التواصل في تشكيل الأنا بناء على أدوار ومواقف يزوده بها الآخرون والتي تعبر عن مواقف الجماعة ككل «يحدد الهوية الجماعية انتماء الأفراد إلى

المجتمع (وكذلك إقصائهم من هذا الأخير) لذلك توجد في هذا الصدد علاقة تكامل بين هوية الأنا والهوية الجماعية، باعتبار أن وحدة الشخص تشكل عبر العلاقة بأشخاص آخرين من نفس المجموعة».⁵

ويمكن تلخيص الفرضيات التي تتمحور حولها النظرية التفاعلية الرمزية لهابرت ميد فيما يلي:

- يتم الانتقال من التفاعل الموجه بالغريزة والمعبر عنه بحركات إلى التفاعل بواسطة رموز «ميد أراد أن يفسر كيف أن التفاعل بواسطة الرموز يصدر وينبثق عن التفاعل بواسطة الحركات».⁶

- يعبر كل تفاعل عن استجابة بحيث يستجيب الكائن العضوي الثاني للكائن العضوي الأول انطلاقاً من المعنى المنتج من خلال عملية التفاعل.

المعاني التي ينتجها التفاعل بين الذات تعبر عن انتماء الفرد للجماعة وعن التنشئة الاجتماعية وعن هوية الجماعة.

غير أن ما يعيبه هابرماس على ميد هو أنه ركز على عملية التواصل، وعلى اعتبار اللغة مجرد وسيط لعملية التفاعل، ولم يركز على دور اللغة كوسيط للفهم «يمكننا حل المشكلة إذا ميزنا بكل وضوح بأن ميد لم يعتبر اللغة كوسيط للتفاهم بين الذات، بل اعتبرها كوسيط لتنسيق الفعل وجمعية الأفراد، وكما أن ميد حوّل طريقة التفاعل بواسطة الحركات إلى التفاعل بواسطة الرموز فقط بالاختصار على اللغة»⁷، وثمة اعتراض آخر يوجهه هابرماس لميد في كونه لم يتمكن من تقديم الطريقة والآلية التي تم بها الانتقال من التفاعل المحكوم بالإيماءات إلى التفاعل المحكوم بالرموز، ومن التعبير الطبيعي إلى التعبير المحكوم بمعايير» انه يهتم بالبناء والتكوين المتكامل للعالم الذاتي والعالم الموضوعي، وبنشوء الأنا والمجتمع تطور التفاعل بواسطة الرموز فقط بواسطة اللغة التي تقود إلى تواصل لغوي متميز قضوياً».⁸

ويرى هابرماس من جهة أخرى أن ميد فسر التنشئة الاجتماعية من جهة تبني الأنا الثانية لموقف الأنا الأولى، والحقيقة تكمن في أن الأنا الثانية لا تتبنى موقف الأنا الأولى وإنما تتبنى توقعات سلوكيات نموذجية، ومحددة من قبل الأنا الثانية «هذا التركيب الدلالي الغير متميز نموذجياً، يتحطم حينما يتعلم المتكلم استخدام القضايا»⁹، ومنه فإن اللغة عند هابرماس لا تسمح بتبادل المعلومات، أوتسهم في عملية التنشئة الاجتماعية فحسب وإنما تمكن الفرد من فهم العالم انطلاقاً من عبارات وجمل وقضايا كونت من هذا العالم، كما أن اللغة ليست مجرد نسق من الرموز، وإنما كلمات، وملفوظات، وأفعال كلامية، لها قدرة

32

والأفعال التقريرية: هي التي يمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب كقولنا: الجوممطر، وانتهى أوستن الى القول أن كل الأفعال انجازية وقسمها الى:

1. فعل القول: هو الفعل الذي ينتج عن التلفظ بمجموعة من الأصوات مترابطة من الناحية الصوتية والصرفية أي بجملة مصاغة صياغة ذات معنى.

2. الفعل المتضمن في القول: ينتج ويتحقق بمجرد النطق بتلفظ معين كالأمر، النهي... الخ

3. الفعل التأثيري: «وهو العمل الناتج لدى المتلقي للقول».¹²

ومنه فإن للفعل عند أوستن ثلاثة معان فهو فعل دال أي يدل على معنى ما، وفعل انجازي ينجز الأشياء بكلمات وفعل له أثار في المجتمع، فأفعال الكلام أعطت للغة صبغة وأهمية جديدة فضلا عن كونها أداة تواصل بين الأفراد فهي تساهم في التأثير في المجتمع والواقع، ولقد استقى هابرماس، تقسيمه الفعل من هذا التقسيم «وخلص في النهاية أنه عند

ما نقول نفعل فأوستن وضع مخطط لنوع من الأفعال اللغوية»¹³، هذا وقسم هابرماس الأفعال الى أربعة أقسام وهي:

1- الفعل الغائي: Agir Téléologique

الفاعل يحقق هدفا أو يثير ظهور حالة مرجوة (تمني حالة ما) باختيار واستخدام الوسائل في موضوعة معطاة بطريقة ملائمة لتحقيق النجاح «والمفهوم المركزي لهذا الفعل هو القرار بين خيارات الفعل لهذا القرار والموجه لتحقيق هدف مسير من قبل الحكم والمدعم بتأويل للوضعية»¹⁴، وهذا يعني أن الفعل الغائي له وظيفة تأثيرية مادام يتوق فاعله الى تحقيق النجاح.

ويرى هابرماس أن هذا النوع من الفعل أي الغائي بإمكانه أن يتحول ويتوسع «الى فعل استراتيجي حسب الاستخدام، أي عندما يختار الفاعل ويأخذ بحسبان الوسائل ووجهات النظر للمنفعة القصوى، والمنفعة المنتظرة»¹⁵، وفي هذه الحالة لا يمكن للغة أن تؤدي وظيفتها التواصلية، كما لا يمكن للمتخاورين أن يصلوا الى مرتبة التفاهم فيما بينهم، مادامت العلاقة بين الذات مبنية على تحقيق الهدف المرجو، وعلى تحقيق النجاح فتتحول اللغة الى وسيلة مادية وتنشأ منها مثلها مثل سائر الأشياء وهذا الفعل مشابه للفعل التأثيري عند أوستن الذي يهدف الى تحقيق غاية من خلال التأثير في شخصية التلقي «ربما يحدث المتكلم تأثيرات معينة على مشاعر وأفكار وسلوك المستمع كنتيجة لما يقول».¹⁶

2- الفعل المحكوم بمعايير: l'agir régulé par des n'armés

في هذا الفعل الفاعل يوجه أفعاله بمعايير محددة من قبل المجتمع، ومنه فإن هذا الفعل لا ينطبق على فرد منعزل وإنما على فاعلين ضمن جماعة توجه أفعالهم ونشاطاتهم بواسطة معايير متفق عليها من قبل المجتمع، فهم ملزمون باحترامها واتباعها لما تسترجع اللغة وظيفتها التواصلية، والمشاركون في عملية التفاعل مدعوون لتحقيق التفاهم فيما بينهم وذلك بالبحث عن الشروط اللازمة التي تنظم سلوكياتهم وتضمن حقوقهم وواجباتهم ومنه فإن هذا النوع من الفعل يشترط وجود علاقة بين مختلف الأطراف الفاعلة في النقاش» انه يخص أعضاء جماعة اجتماعية، توجه أفعالهم حسب قيم مشتركة¹⁷ وهي علاقة ذات ذات موجهة من قبل المجتمع.

3- الفعل المسرحي L'agir dramaturgique

في كتابة نظرية الفعل التواصلية الجزء الأول يذكرها هابرماس أن هذا الفعل لا يخص في البداية لا الفاعل المعزول، ولا أعضاء جماعة اجتماعية لكنه يخص المشاركين في عملية التفاعل المنظمة للتبادل فيما بينهم لجمهور يتقدمون أمامه «الفاعل يخلق عند جمهوره صورة لذاته، نازعا الغطاء والستار عن مقاصد ذاتيته»¹⁸ فهو يخلق نوعا من الانطباع لدى الجمهور بالكشف عن مقصده ونواياه ومعياري ادعاء الصلاحية هو الصدق، ويحمل هذا الفعل وظيفة تقديم الذات أمام الجمهور لتحقيق التفاهم، وهو الآخر يستوجب علاقة ذات، ذات محكومة بالذاتية.

4- الفعل التواصلية: L'agir communicationnel

وهو الفعل الذي يمكن الشخص من الدخول في علاقة تفاعلية بين ذاتية للحصول على اتفاق فيما بينهم وبحثا عن حدوث عملية التفاهم حول موقف ما يمكنهم من تنسيق أفعالهم بطريقة اتفاقية « إنه يرتبط بتفاعل يحدث على الأقل بين ذاتين قادرين على الكلام وعلى الفعل، يدخلون في علاقة بين شخصية. سواء بوسائل شفوية أو غير شفوية الفاعلين يبحثون عن تفاهم حول وضعية للفعل لتنسيق خطط عملهم وفعلهم»¹⁹ ويعطي هذا الفعل للغة أهمية قصوى في أحداث عملية التواصل، فهي وسيط للتفاهم لا مجرد أداة ووسيلة لخدمة غرض خاص أو تحقيق منفعة ما كما هو الحال الفعل الغائي الاستراتيجي. بل الهدف الوحيد للغة وللأطراف الفاعلة في الحوار هو تحقيق الفهم .

ويعول هابرماس على الفعل التواصلية في إقامة تواصل بين ذاتي، كما أنه يدمج الأفعال السابقة الثلاثة تحت لوائه لأنه يأخذ بعين الاعتبار كل وظائف اللغة والكلام «فالنموذج التواصلية يأخذ في حسابه وبنفس

الدرجة كل وظائف اللغة، انه المفهوم الذي يحدد العادات الاجتماعية المرتبطة بالفاعلية الرمزية لميد ومفهوم ألعاب اللغة عند فيجندشتاين ونظرية أفعال الكلام عند أوستن، وهيرمينوطيقا غدامير».²⁰

فهبرماس لم يرسم مفهوم التواصل ومعاليم الفعل التواصلية منعدم بل استقى دعائمه من منابع متنوعة سواء في التداولية أو في الهرمينوطيقا، ما يظهر اطلاعه الواسع وتشعب أفكاره، وخصوصية طرحه الفلسفي، ويبين أن الفعلين الأول والثاني لأوستن يتوافقان مع الفعل التواصلية أما الفعل الثالث فيتوافق مع الفعل الغائي.

1-2- جون سيرل:

وهو تلميذ لجون أوستن، طور نظرية أستاذه المتعلقة بأفعال الكلام والتي مفادها، أن أفعالنا متجسدة في الأقوال والملفوظات التي ينطق بها الإنسان، فالمتكلم عندما يصدر حكماً أو يطرح سؤالاً، أو يدلي بنصيحة فإنه ينجز فعلاً ما، لكنه رأى أن أستاذه، لم يتحدث ويتطرق إلى القصد من الأفعال الكلامية، وهو ما اقتبسه والتمسه من خليفة بول غرايس حول المعنى «لقد رأى غرايس مصيباً أننا حين نتصل بالناس، فنحن نفلح في توليد فهم لديهم، يجعلهم يتعرفون على قصدنا في توليد ذلك الفهم، والاتصال فعل خاص بين الأفعال الانسانية التي تنجح فيها في توليد أثر مقصود على المستمع يجعل المستمع يتعرف على قصد توليد ذلك الأثر نفسه».²¹

وارتكزت أفعال سيرل على دور القصد في توليد المعنى والفهم فكلام الإنسان، لا يرتبط حسب أوستن بفعل ما فقط، بل بما يقصده المرسل من وراء كلامه ومن تحقيق الفهم والتفاهم لدى المرسل إليه أو المتلقي «إن الفرق بين أفكار الاثنين (سيرل وأوستن) في نظرية فعل الكلام هي أن الأول كان يؤكد على مقاصد المتكلم، بينما يؤكد الثاني على تفسير المستمع، أو المخاطب».²²

وهذا يصل هابرماس إلى اكتشاف نوع جديد من أنواع اللغة وهو فعل الكلام وهو نقطة الانطلاق الضرورية للتداولية العامة التي اتخذت من المنعطف اللغوي دعامة أساسية للكشف عن زيف الإيديولوجيا ونقد الواقع والخطابات السياسية المعبر عنها باللغة، فيجب على المتلقي أن يحمل مهمة الكشف عن الأوهام السياسية، وظلمها ونواياها وما ترمي إليه من مقاصد قبل أن تتجسد على أرض الواقع ما دام كل قول هو فعل «فالترتيب التداولي للأفعال اللغوية مهم للمرشدين، أو الموجهين للذين يتخذون من الأبعاد العالمية لوضعية الكلام كمرجع أو حالة».²³ ووصل هابرماس إلى أن القصد لا يبقى مقتصرًا على المرسل أو على المرسل إليه كما هو عند سيرل، بل يشترك فيه الطرفين الفاعلين في عملية التفاوض وفي فضاء يتصف بالحرية بل ويمتد إلى أبعاد عالمية، والمعنى لا تنتجه ذات واحدة بل تشترك فيه الجماعة، فالتواصل البيّنات، الذي يتم

عبر وسيط اللغة، عامل أساسي في تحقيق الاشتراك والتفاهم بين أعضاء الجماعة المكونة للمجتمع من دون قصر أو إرغام.

2-2- بول غرايس Paul Grice:

طور هابرماس أطروحته التداولية اعتماداً على الأفكار التداولية لغرايس كونه أوجد مفاهيم تنظم عملية التواصل، ووضع مبادئ للحوار «يفترض غرايس أن المتخاطبين المساهمين في محادثة مشتركة يحترمون مبدأ التعاون فالمشاركون يتوقعون أن يساهم كل واحد منهم في المحادثة بكيفية عقلانية ومتعاونة لتسيير تأويل أقواله».²⁴

فقوام المحادثة والحوار وجود علاقة بين المتحدثين تقوم أساساً على العقلانية، وهذا ما أكدته واستثمره هابرماس في حديثه عن الفعل التواصلية باعتباره نتاج العقلانية التواصلية كبديل للعقلانية الأدائية، وهو تحقيق لمشروع عملي مؤسس على تأويل للوضعية التي يوجد عليها الفاعلين في النقاش، والتي تمثل جزء من محيطهم الاجتماعي أولنقل عالمهم المعيش «أسمي الفعل فقط التعبيرات الرمزية والتي من خلالها الفاعل يرسخ ويبني علاقته بالعالم على الأقل (وأيضاً بالعالم الموضوعي)».²⁵

واستثمر هابرماس من غرايس القواعد التي ينبغي للمتکلم أن يحترمها أثناء الحوار ووضع (هابرماس) الشروط التي تضمن نجاح وصلاحيّة الفعل التواصلية، وهي حسب غرايس تنقسم إلى:

✓ «قاعدة الكم: وهي القاعدة التي على المتكلم الالتزام بحد من المعلومات وفق ما يناسب الحوار دون زيادة.

✓ قاعدة النوع: وتفترض نزاهة القائل الذي ينبغي ألا يكذب وأن يستخدم الحجج الكافية لإثبات ما يقوله.

✓ قاعدة العلاقة: وتفترض أن يكون الموضوع له علاقة بأقوال القائل السابقة وأقوال الآخرين.

✓ قاعدة الكيف: وتعني أن نعبر بوضوح ودون لبس وتقديم المعلومات بترتيب مفهوم».²⁶

وعن القواعد التي وضعها هابرماس واعتبرها معايير تضمن نجاح وصلاحيّة الفعل التواصلية أربعة وهي: المعقولة، الحقيقة، الدقة (الصحة)، المصادقية.

وتتناسب قاعدة المعقولة التي تستدعي التعبير عن قضية تعبير لغويًا صحيحًا خاضع لقوانين العقل مع قاعدة الكم، التي يفترض على المتكلم أن يلتزم بحد من المعلومات التي تخدم الحوار، وبالطبع ينبغي أن يكون التعبير سليماً حتى يفهم مضمون الحوار.

كما تتوافق إلى حد ما قاعدة الحقيقة مع قاعدة العلاقة، فالأولى تتطلب ضرورة إشارة القول إلى قضية واقعية، والثانية تفرض أن يكون الموضوع له علاقة بأقوال القائل والآخرين مما يدل على أنه موضوع متداول، مطروح واقعي للنقاش.

- وأخيرا فإن قاعدة النوع لغرايس التي تتطلب النزاهة تتطابق مع قاعدة المصادقية التي تستدعي التعبير عن نوايا المتحدث بكل صدق ومن دون تضليل أو كذب.

إذن من كل هذه المصادر وغيرها استطاع هابرماس أن يبلور نظرية التواصلية كحل علاجي لأزمة الحداثة التي استفحلت في الغرب، فالوباء الذي خلفته العقلانية الأداتية، باعتبار التواصل شرط مهم ودعامة أساسية لتوطيد العلاقات الإنسانية التي همشت من قبل فلسفة الوعي، ونتيجة لمركزية العقلانية الغربية، ولتجاوز مآسي الحرب ونكبة الحضارة الغربية فلقد استطاع هذا الفيلسوف أن يضمم الجراح ويقيم نوع من المصالحة مع تصدعات هذه الحضارة والعقلانية الأنوارية وكذا الأداتية وذلك بالمزاوجة بين النظرية والتطبيق، وبين اللغة والواقع الاجتماعي، ولهذا السبب أولى للمنعرج اللغوي أهمية بارزة، وحول اللغة من براديجم التواصل الأداتي (أي اعتبار اللغة مجرد أداة ووسيلة للتواصل) إلى براديجم التداولية العامة أو البراجماتيكا، واعتبارها أساسا للفهم، وتحقيق الاتفاق بين الذوات وفق معايير ثم الاتفاق عليها من قبل الإجماع، ومن ثم الحديث عن ما يسميه بإتيقا النقاش، وعلى هذا الأساس لا بد أن نطرح التساؤل: ما المقصود بالعقلانية التواصلية وماهي الشروط التي تقوم عليها أوبالأحرى فيما تتمثل أخلاقيات النقاش الهابرماسية؟

(1) العقلانية التواصلية:

سعى هابرماس من خلال فلسفته ومساره الفكري إلى تحديد كلمة عقلاني Rationnel وسعى إلى تجديد وإعادة بعث التفكير في العقلانية وفي تطبيقاتها الملتبسة في الواقع الاجتماعي وبالذات الواقع الغربي، وهذا لإعادة بناء مفهوم العقل، وبعث عقلانية جديدة متحررة من كل أشكال السيطرة، وهيمنة المعرفة وما نتج عن الحداثة، ولقد وجد هابرماس في فكر ماكس فيبر أرضية خصبة وبحثا ثريا للبحث في مسألة العقلانية وما آلت إليه، ذلك أن فيبر ربط بين الحداثة والعقلنة «إنه يهتم بالتحول الذي شهدته عقلنة الثقافة وعقلنة المجتمع»²⁷ ووصل إلى أن عقلنة الثقافة وعلمنتها وكذا أنظمة الدولة بما فيها الرأسمالية والشخصية أدت إلى فقدان القيم الإنسانية وفقدان الحرية.

ولقد أخذ هابرماس بفكرة فيبر الذي اعتبر أن الحداثة لصيقة بالغرب، وتساءل عن السبب الذي حولها من عقلانية تحررية إلى أداة استعباد، وإعتبر أن مفهوم العقلانية الفيبرية مقارنة خصبة لمفهوم الحداثة،

لكنه اختصر واختزل العقلانية في المعقولية الأداتية، مستبعدا المعقولية التواصلية الهادفة إلى تنشيط التواصل، ورد الاعتبار لقيمة الإنسان في المجتمع وذلك بتفعيل العلاقة بين الذوات الاجتماعية في ظل العالم المعيش، ويميز هابرماس بين نمطين من الفعل العقلاني:

- 1- **الفعل العقلاني الغائي:** وهو الفعل الذي يتوخى منه صاحبه تحقيق هدف باستخدام وسائل لتحقيق النجاعة، فهو يخضع لقواعد تقنية تتأسس على معرفة تجريبية « وأقصد بالفعل العقلاني الغائي إما فعلا أداتيا، أو اختيارا عقلانيا، أو مركبا من كليهما، ويهتدي الفعل الأداتي بالقواعد التقنية التي تقوم على معرفة تجريبية وتتضمن في كل الأحوال تنبؤات مشروطة حول وقائع قابلة للملاحظة المادية والاجتماعية».²⁸
- 2- **الفعل العقلاني التواصلية:** وهو الفعل الذي يهدف إلى الفهم بين المتحاورين ويحقق الإجماع فيما بينهم ويحتكم إلى معايير صلاحية متفق عليه من قبل الذوات والمجتمع «فمفهوم العقلانية التواصلية يتضمن دلالات تعود في النهاية إلى التجربة المركزية لهذه القوة من دون عنف خطابي تبريري، والذي يسمح بتحقيق التفاهم وتوليد الإجماع».²⁹

ويوجد أربعة أنماط من الأفعال التواصلية:

- 1- أفعال مرتبطة بادعاءات الحقيقة.
- 2- أفعال مرتبطة بادعاءات النجاعة (نجاعة الوسائل)
- 3- أفعال مرتبطة بادعاءات السداد المعياري: Justesse normative
- « نسمي أيضا عقلاني من يتبع معيارا موجودا ويستطيع تبرير فعله مواجهها للنقد مفسرا وضعية معطاة».³⁰
- 4- أفعال مرتبطة بادعاءات النزاهة الشخصية: «يسمى أيضا عقلاني من يعبر بكل نزاهة عن أمنية وعن إحساس أحواله فكر».³¹

وتقوم الممارسة التواصلية على الاعتراف البينداتي والإتفاق الحاصل بين الذوات على الحجاج الخطابي، وعلى قوة الحجة التي تقاس بقدرتها على تحقيق الإقناع بين الذوات وتتوقف على قدرة الفرد على القيام بالحوار على الكفاءة التواصلية إضافة إلى الكفاءة اللغوية، كما يتمكن المشاركون في الحوار من تحويل الرأي حول موضوع من موضوع قوي إلى معرفة ومن تصحيح أخطائهم والحكم على فشل تجاربهم قصد التحكم « فالقناعات البينداتية المتبادلة تشكل تعهد أو التزاما بين المشاركين في التفاعل».³²

ومنه فإن النشاط التواصلي يفترض الإتفاق على معايير من قبل الإجماع تعمل على تنظيم أفعالهم التواصلية، وتنشيطها ولا يمكن تطبيقه على فرد منعزل بل على شخصين على الأقل فاعلين في المجتمع، وإذا أراد كل فرد أن يحقق التفاهم فعليه أن يراعي ثلاثة إدعاءات للصلاحية.

1- أن تكون ملفوظاته صحيحة.

2- دقة أفعاله المنظمة والمدعمة بمعايير.

3- صدق تجاربه الذاتية « يمكننا اعتبار أن نعد الحاجة مصدر إنتاج للحجج الملائمة، ذلك أن الحجج ماهي إلا تلك الوسائل التي بموجبها تقوم المعرفة البيندائية المستندة الى أسس إفتراضية بتحويل المقترحات والآراء الى معارف حقيقية بعد ان تكون قد أخضعتها للإنتقاء والغربة الصارمة».³³

والى جانب إدعاءات الصلاحية يصهر هابرماس ان الملفوظ لا يقتصر دوره على التعبير عن الحقيقة فقط بل يجب أن يتوفر على شروط وهي الصدق المعقولية والدقة فالحقيقة تكمن في اللغة واللغة تنجز الكلام والكلام يعبر عن الفعل، كما يرى أن الحالة المثالية لكلام تستدعي توفر شروط أربعة وهي:

1- المعقولية Intelligibilité: فمعنى مضمون القضية متأصل في الملفوظات والمعقولية تعتمد على أنجاز

جملة مركبة تركيبا صحيحا بإعتماد قواعد اللغة المستخدمة «وصحة الملفوظ مرتبطة بصحة المعرفة إذا كان هذا اللفظ يترجم تجربة اوحدث».³⁴

2- الحقيقة: vérité الحقيقة لابد أن تكون متضمنة في القول، وان يشير القول الى واقعة موجودة في

العالم الواقعي فحقيقة الملفوظ تنجر بفعل الكلام الدال عليها.

3- الصحة: « صحة فعل يرتبط بسؤال حول معرفة إذا كان هذا الفعل يتوافق مع مخطط سابق

معياري معترف به من قبل الجماعة»³⁵، وهذا يعني خضوع التلفظ الى معايير منتجة من قبل المجتمع ومتفق عليها.

4- الصدق: وهو ما يسمح به للتعبير عن نوايا المتحاور وبطريقة صادقة ومن دون كذب أو تضليل.

ويمكن إعتبار الشروط الأربعة، شروطا لا يستقيم التواصل من دونها وهي ما تفترضها اخلاقيات النقاش، ومن خلال هذه الشروط نقول انه يجب اولا على الاطراف الداخلة في الحوار أن تمتلك لغة معقولة ومفهومة وأن يدور النقاش حول واقعة أوحادثة أو موضوعة موجودة في العالم الموضوعي الذي يقابله العالم الذاتي المرتبط بشعور الفرد وضرورة الإحتكام الى معايير متقف عليها من قبل الإجماع، مما يعني وجود عالم ثالث، وهو العالم الإجتماعي، وان يلتزم المتحاورين بالنزاهة وصدق النوايا مما يدل على وجود عالم قيمي أكسيولوجي يقول هابرماس « حاولت في أطر نظرية الفعل التواصلي إرساء معقولية سلوكية مفادها ان شخصا معينا ومهما يكن محيطه الإجتماعي ولغته وشكل حياته الثقافية فإنه ليس بمقدوره عدم الإنخراط

داخل الممارسات التواصلية ومن ثمة لن يكون في مقدوره محصلة ان لا يبدي إهتماما ببعض الإفتراضات التداولية التي نعتقد بأنها ذات معنى عام».³⁶

نستنج مما سبق أن هابرماس إستطاع أن يبني ويؤسس مشروعا تواصليا الهدف منه تحقيق التفاهم والإجماع بين المشاركين والفاعلين في عملية الحوار والنقاش وهذا المشروع إنما هو البديل العقلي والاجتماعي للعقلانية الأداتية التي أنتجت الحداثة، وخلفتها الحضارة الغربية والأوربية ويقتضي المشروع التواصلية، معقولة تواصلية قائمة على براديغم التدوات واللينداتية، المجاوزة لفلسفة الآنا وفلسفة الوعي، كما هي مدعمة بالحجاج لتحقيق، فهم متبادل وتحقيق الإجماع تمنح فيه الغلبة لأقوى حجة وأفضلها نوعا وهي تستعين بالبراديغم التداولي حيث عمل على إخضاع الممارسات الإنسانية السياسية منها والاجتماعية والإقتصادية لإتيقا النقاش، وفق قواعد وشروط تضمن صلاحية الاتفاق واستمرارية واستبدال براديغم الأخلاق الكانطية بأنموذج تداولي قائم على الحوار والحجاج، وعلى وسيط اللغة وعلى فعل الكلام والتلفظ، وعليه إذا كانت إتيقا المناقشة هي نتاج العملية التواصلية فكيف ستسهم في تحقيق أخلاق ومعايير كونية وتواصل فعال بين الذوات ؟

¹ كريب إيان: النظرية الاجتماعية من بارسونز الى هابرماس، تر محمد حسن علوم، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت، د. ط، 1991، ص: 133.

² حنيفي جميلة: يورغن هابرماس من الحداثة إلى المعقولة التواصلية، إصدارات الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية ط1، 2016، ص: 168.

³ إيان كريب: النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس، مرجع سابق، ص: 134.

⁴ المحمداوي علي عبود: الإشكالية السياسية للحداثة، دار الأمان، المغرب، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2011، ص: 53.

⁵ هابرماس يورغن: بعد ماركس، تر: محمد ميلاد، دار الحوار للنشر والتوزيع اللاذقية، سوريا، ط1، 2002، ص: 38.

⁶ Jürgen Habermas: Théorie de l'agir communicationnel, Tome 2, tr : Jean-Louis Shelegel Ed : Fayard, France, 1987, p 17.

⁷ Ibid. p31.

⁸ Ibid. p31.

⁹ Ibid. p36.

¹⁰ Jürgen Habermas: logique des science sociales et autre essais, tr: rainer rochlit, Ed: pufparis, 1987, p41.

¹¹ Ibid, p386.

¹² صغير نبيل محمد وآخرون: يورغن هابرماس العقلانية التواصلية في ظل الرهان الإتيقي، ابن النديم للنشر والتوزيع الجزائر، دار الرواند الثقافية، ناشرون، ط1، 2013، ص: 222.

¹³ Jürgen Habermas: Théorie de l'agir communicationnel, tr: Jean Marc Fery, Ed: Fayard France, 1987, p 327.

¹⁴ Ibid. p101.

¹⁵ Ibid. p101.

¹⁶ صالح سماعيل عبد الحق: التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1 1993 ص: 203.

¹⁷ Jürgen Habermas: théorie de l'agir communicationnel, T1, op, cit, p101.

¹⁸ Ibid. p101.

¹⁹ Ibid p102

²⁰ Ibid p 111

- ²¹ سيرل جون: العقل واللغة والمجتمع، الفلسفة في العالم الواقعي، تر: سعد الغانمي، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان بيروت، منشورات الاختلاف بالجزائر، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2006، ص: 212.
- ²² المحمداوي علي عبود: الاشكالية السياسية للحدثة، مرجع سابق، ص: 63.
- ²³ Jürgen Habermas: Théorie de l'agir communicationnel T1, op cit, P329.
- ²⁴ - روبول آن موشلار جاك: التداولية اليوم علم جديد في التواصل، تر: سيف الدين دغفوس، محمد الشيباني، دار الطليعة للطباعة والنشر، لبنان، ط1، 2003، ص: 55.
- ²⁵ - Jürgen Habermas: Théorie de l'agir communicationnel, T1, op, cit, p 112.
- ²⁶ - روبول آن موشلار جاك ر: التداولية اليوم علم جديد في التواصل، مرجع سابق، ص: 56.
- ²⁷ Jürgen Habermas: Théorie de l'agir communicationnel, T1, op.cit, p 182.
- ²⁸ هابرماس بورغن: العلم والتقنية كإيديولوجيا، تر: إلياس حاجوح، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، د.ط، 1999 ص: 88.
- ²⁹ Jürgen Habermas: La théorie de l'agir communicationnel T1, op, cit, P27.
- ³⁰ Ibid, p32.
- ³¹ Ibid, P32.
- ³² Jürgen Habermas : Logique des sciences sociales et autres essais, op, cit, p 416.
- ³³ مهيبيل عمر: إشكالية التواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر المركز الثقافي العربي، ط1، 2005، ص: 359.
- ³⁴ Jürgen Habermas : Logique des sciences sociales, op, cit, p 363.
- ³⁵ Ibid, P 363.
- ³⁶ هابرماس يورغن: إتيقا المناقشة ومسألة الحقيقة تر: عمر مهيبيل، منشورات الاختلاف، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، 2010، ص: 30.